﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [العنكبوت: 53 - 55]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مجادلة الكافر للصدِّ عن الحقِّ لا للوصول إليه

لمّا ذكرتِ الآيات السّابقة مجادلة الكافرين في آيات الكتاب، وطلَبَهم الإتيانَ بمعجزاتٍ ماديَّةٍ كفرًا وعنادًا، وحُكِم عليهم بالخسارة، ناسب الانتقال إلى صورة أخرى من صور كفرهم بعد ذكر جدالهم، ألا وهو استهزاؤهم، المترجَم عنه باستعجال العذاب، فهو انتقال من ذكر جدالهم في طلب المعجزات، إلى ذكر استهزائهم بنزول العذاب، وقد بيَّنتِ المناسبة أنَّهم يُجادلون للصدِّ عن الحقِّ لا للوصول إليه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾: (عجل) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِسْراعِ[1]، والعَجَلُ والعَجَلة: السُّرْعة خِلافُ البُطْء، والاسْتِعْجال والإعْجال والتَّعَجُّل: بِمَعْنَى الاسْتِحْثاث وطَلَب العَجَلة، وأعْجَلَه وعَجَّلَه تَعْجيلًا إذا اسْتَحَثَّه، وقَدْ عَجِلَ عَجَلًا وعَجَّلَ وتَعَجَّلَ، واسْتَعْجَلَ الرجلَ: حَثَّه وأمره أن يَعْجَل في الأمر[2]، والعَجَلَةُ: طلب الشيء وتحرّيه قبل أوانه، وهو من مقتضى الشّهوة، فلذلك صارت مذمومة في عامّة القرآن، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء: 37][3]، ومعناه في الآية الكريمة: يطلبون تعجيلك[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(3) الراغب، المفردات: (عجل).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 462.

2) ﴿أَجَلُ﴾: (أجل) أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأْجَلُ، والاسمُ الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرْجَأُ، أي: المُؤَخَّرُ إلى وقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[1]، يُقالُ: دَيْنُهُ مُؤَجَّلٌ، وقد أَجَّلْتُهُ: جعلتُ له أجَلًا، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان: أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[2]، والمقصود بالأجل في الآية: يوم القيامة، وقيل: يوم بدر، وقيل: أعمارهم[3].

3) ﴿مُّسَمًّى﴾ (سما) المُسَمَّى: مَأخوذٌ مِنَ الاسمِ، وهو: ما يُعرَفُ به ذاتُ الشَّيءِ، وأصلُهُ مِنَ السُّموِّ، وهو: العُلوُّ والارتِفاعُ، يُقال: سَما، يَسمو، سُموًّا: إذا ارتَفَعَ، وسَما به وأسماهُ: أعلاهُ، وإنَّما جُعِلَ الاسمُ تَنويهًا على الدّلالَةِ على المَعنى؛ لأنَّ المَعنى تَحتَ الاسمِ[4]، والمقصود بالمُسَمَّى: المُعَيَّنُ؛ لأنَّ التَّسميَةَ تَعيينُ الشَّيءِ[5].

4) ﴿بَغْتَةً﴾: (بغت) أصْلٌ غير مقيس، مِنْهُ الْبَغْتُ، وهوَ أنْ يَفْجَأَ الشَّيْءُ[6]، البَغْتُ والبَغْتَةُ: الفَجْأة، وفي التَّنْزيلِ الْعَزيزِ: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأةً، وقَدْ بَغَتَه الأمرُ يَبْغَتُه بَغْتًا: فجِئَه، وباغَتَه مُباغَتةً وبِغاتًا: فاجأه[7]، وهو يدلّ على مفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب، قال تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ [الأعراف: 187][8]، فالمراد الفجأة.

5) ﴿لَمُحِيطَةٌ﴾: (حوط - حيط) أصلٌ وهوَ الشَّيْءُ يُطيفُ بِالشَّيْءِ، فالْحَوْطُ مِنْ حاطَهُ حَوْطًا، وحَوَّطْتُ حائِطًا، والْحَوْطُ: شَيْءٌ مُسْتَديرٌ تُعَلِّقُهُ الْمَرْأَةُ عَلَى جَبينِها مِنْ فِضَّةٍ[9]، الحائِطُ: واحد الحيطانِ، وحَوَّطَ كَرْمَةً تَحْويطًا: بنى حوله حائِطًا، فهو كَرْمٌ مُحَوَّطٌ، وقد حاطَهُ يَحوطُهُ حَوْطًا وحيطَةً، أي كَلَأه ورعاه[10]، والحائط: الجدار الذي يَحوط بالمكان، والإحاطة تقال على وجهين: أحدهما: في الأجسام نحو: أَحَطْتُ بمكان كذا، أو تستعمل

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(2) الراغب، المفردات: (أجل).
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 411.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سما).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 191.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بغت).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (بغت).
(8) الراغب، المفردات: (بغت).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حوط).
(10) الجوهري، الصحاح: (حوط).

في الحفظ نحو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٌ ٥٤﴾ [فصلت: 54]، أي: حافظ له من جميع جهاته[1]، والمقصود في الآية أنّ النّار جامعة لهم[2].

6) ﴿يَغۡشَىٰهُمُ﴾: (غشى) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقالُ غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشِّيهِ، والْغِشاءُ: الْغِطاءُ[3]، غَشِيَهُ غِشاوَةً وغِشاءً: أتاه إتيان ما قد غَشِيَهُ، أي: سَتَره، والْغِشاوَةُ: ما يُغَطّى به الشيء، قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ﴾ [الجاثية: 23]، وغَشَيْتُ موضع كذا: أتيته، وكنّي بذلك عن الجماع، يقال: غَشّاها وتَغَشّاها. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ﴾ [الأعراف: 189]، وكذا الْغِشْيانُ، والْغاشِيَةُ: كلّ ما يغطّي الشيء كَغاشِيَةِ السّرج، وقوله: ﴿أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ﴾ [يوسف: 107] أي: نائبة تَغْشاهُمْ وتُجَلِّلُهم[4]، وقوله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾ [الغاشية: 1] كناية عن القيامة لأنها تغشى الناس، أي تحيط بهم وتشملهم، فلا يفلت منها أحد منهم، والمعنى أنه يغشاهم هولها[5]، والمراد به في الآية الكريمة: يغطّيهم العذاب من كلّ جهة من جهاتهم[6].

7) ﴿ذُوقُواْ﴾: (ذوق) أَصْلٌ يدلّ على اخْتِبارِ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةِ تَطَعُّم، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ مَجازًا فيُقالُ: ذُقْتُ الْمَأْكولَ أذوقُهُ ذَوْقًا، وذُقْتُ ما عِنْدَ فُلانٍ: اخْتَبَرْتُهُ، وكُلُّ ما نَزَلَ بِإِنْسانٍ مِنْ مَكْرُوهٍ فقَدْ ذاقَهُ[7]، الذَّوْقُ: مَصْدَرُ ذاقَ الشيءَ يذوقه ذَوقًا وذَواقًا ومَذاقًا، فالذَّواق والمَذاق يَكونانِ مَصْدَرَيْنِ ويَكونانِ طَعْمًا، كَما تَقولُ ذَواقُه ومذاقُه طَيِّبٌ؛ والمَذاق: طَعْمُ الشَّيْءِ، والذَّواقُ: هوَ المأكول والمَشْروبُ[8]، والذّوق: وجود الطَّعْم بالفم، وأصله فيما يَقِلّ تناوله دون ما يَكْثُر، فإنّ ما يكثر منه يُقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذَّوق في العذاب؛ لأنّ ذلك – وإن كان في التّعارُفِ للقليل – فهو مُسْتَصْلَحٌ للكثير، فخَصَّهُ بالذّكر ليَعُمَّ الأمرين، وكَثُر استعماله في العذاب[9].

(1) الراغب، المفردات: (حيط).
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب: ص: 288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(4) الراغب، المفردات: (غشي).
(5) السمين، عمدة الحفاظ: (غشي).
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 323.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذوق).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (ذوق).
(9) الراغب، المفردات: (ذوق).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مقابلةُ الاستهزاءِ القائم على الباطل باستهزاء قائم على الحقِّ؛ عدلٌ وتأديب

تُبيِّن الآيات الكريمة حال المشركين إذ قالوا للنّبيّ ﷺ على سبيل التّهكّم والاستهزاء: إن كان هذا حقًّا فأتنا به، فأجابهم بأنّه لا يأتيكم بسؤالكم ولا يعجّل باستعجالكم؛ لأنّ الله تعالى قد أجّله إلى موعد يأتي في وقته وذلك لحكمةٍ، ولولا ذلك الأجلُ المسمَّى، الذي اقتَضَتْه حكمتُه تعالى، لعجّله لكم ولأوقَعَهُ بكم، وإنّه سيأتيكم فجأةً وأنتم لا تشعرون به، ثم بَيَّن أنّ ذلك يثير العجب، فكيف يطلبون التّعجيل بالعذاب وهو سيُحيط بهم من كلّ نواحيهم، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ: ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون؛ فأخبر بذلك عن جهلهم وحماقتهم، ثم وصف تعالى كيفيَّةَ إحاطة العذاب بقوله: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يوم يَعُمُّهُم العذاب ويُغَطّيهم من كل الجوانب، ويقال لهم في ذلك اليوم تقريعًا وتوبيخًا: ذوقوا جزاءَ ما كنتم تعملون في الدنيا من كفرٍ ومعاصي[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع الواو ودلالتها الارتباطيَّة:

تَحْتَمِلُ الواوُ العطفَ للاستقصاء أو الاستئنافَ للتعجب

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إمّا أن تكون من عطف الجملة على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: 50]، لغرض الاستقصاء في الرّدّ على شبهات المشركين، وإبطال أعذارهم عن إعراضهم، فإعراضهم كائن عن مكابرة لا عن عدم وضوح الحُجَج[2]، وإمّا أن تكون استئنافيّة، فتكون الجملة استئنافًا ابتدائيًّا مسوقًا للتّعجيب منهم، أو الاستهزاء بهم[3].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 21/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.

غرض التّعبير بصيغة المضارع:

الاستعجالُ المتجدّد عنادٌ على الكفر وإصرارٌ على الباطل

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لما في المضارع من دلالة على التّجدّد، أي إنّهم دائمون على طلب التّعجيل، فيطلبون من النّبيّ ﷺ تعجيل العذاب بكلّ وقت[1]، ودلَّت صيغة المضارع على عنادِهم في كفرهم، فاستعجالهم الدّائم الذي لا يفترون عنه، هو لونٌ من ألوان العناد والإصرار على الشرك، ولذا آثر النَّظم الكريم صيغةَ المضارع على الماضي، ليكون بيانًا في سبب عذابهم، لا إخبارًا عمّا صدر عنهم فحسب، وتحتمل صيغة المضارع أن تكون لاستحضار حال استعجالهم لإفادة التعجيب منها[2].

نوع الباء ومعناها:

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وهو مستعمل للتّعدية؛ أي: يطلبون منك تعجيل العذاب، فيكون التّعجيل واقعًا على العذاب.

معنى تعريف لفظ ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

تعيين نوع اللام عائدٌ إلى تفسير الألفاظ

عُرِّف (العذاب) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ والتّعريف هنا تعريف الجنس[3]، أي جنس العذاب، فيشمل أي عذاب ممكن أن ينزله الله تعالى فيهم، وهذا يُظْهِر مدى سُخْفِهم واستهزائهم، ويَحْتَمِل أن يكون للعهد إذا جعلنا استعجالهم لعذابٍ مخصوصٍ كعذاب القيامة الذي يُنكرونه؛ فهم يستعجلونه مع إنكاره فيكون من باب التَّهكم والاستهزاء.

نوع الواو ودلالتها السّياقيّة:

عطف النّظم الجليل جملة: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 462.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.

على استعجالهم العذاب؛ فبعد أن ذكر استعجالهم نزول العذاب، بيّن حكمته في تأخير عذابه عنهم بأنّ الله تعالى لم يجعله وفْقَ طلبهم، ولكن بأجَلٍ يعلمه هو[1]، فقد أبطل ما قصدوه من الاستعجال بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وذلك أنَّ حلولَ العذاب ليس بيد الرسول ﷺ، ولا جاريًا على طلبهم واستبطائهم، فإنَّ الله هو المقدّر لوقت حلوله بهم في أجل قدَّره بعلمِه[2].

إبطال الاستعجال بوجود الأجل المسمّى المبني على حكمته سبحانه

فائدةُ استعمال (لولا) الشّرطيّة:

استعمل النّظم الجليل حرفَ الشّرط (لولا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ وهو دالّ على امتناع لوجود[3]، أي امتنع الفعل الكائن في الجواب ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ لوجود الشّرط ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، أي: لم يأتهم العذاب بسبب وجود الأجل المسمّى، وهذا ردٌّ عليهم إذ إنّ طَلَبَهمُ التّعجيلَ بالعذاب ليس منوطًا بالنّبيّ ﷺ، بل بتقدير الله تعالى، وفائدة الشّرط أنّه عَلَّقَ عدم نزول العذاب بعلّة وجود الأجل، وهذا يُفْصِح عن أنّ العذاب لا ينزل وفق سؤالهم، بل بما قدّره الله تعالى.

منعُ نزول العذاب منوطٌ بعلّة وجود الأجل

نكتة تنكير لفظ ﴿أَجَلٌ﴾:

نُكِّر لفظ ﴿أَجَلٌ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ تفخيمًا لشأن هذا الأجل، فإنَّ الاستهانة به لا تصدر إلّا عن غافلٍ لا يَرْقُبُ الحقيقة الواقعة، ولا يبحث عن الحقِّ الآتي، وهو واقع في الجملة موقع المسند إليه[4]، فالجملة الواقعة شرطًا جملة اسميّة، والتّقدير: (أجلٌ مسمّى موجودٌ).

فخامةُ الأجل المسمَّى لا يستهين بها إلّا غافل

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 11/ 50.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.

نكتة التّعبير باسم المفعول:

اتّحاد الفاعل في تعيين السبب المانع من العذاب دليل القدرة على إنزاله

جاء التّعبير بصيغة اسم المفعول في قوله جلّ شأنه: ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ دون أن يقول: (أجل سمّاه الله تعالى)؛ للعلم بأنَّ الذي سمّاه هو الله تعالى، وللإيماء إلى أنَّ الذي سمّاه هو الذي سيُنزل العذاب بهم، فاتّحاد الفاعل في تعيين السَّبب المانع من إنزال العذاب، دليل القدرة على أنَّ العذاب في مقدوره سبحانه وتعالى، لا في مقدورِ غيره، ولبيانِ أنَّ المانع إنَّما يكون لحكمةٍ قدَّرها الله تعالى.

بلاغة الاستعارة في لفظي ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾:

اجتماع التّصريحيَّة والمكنيّة في تركيبٍ وصفيٍّ من بديع الاستعارات

لفظ ﴿مُّسَمًّى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ كناية للمعيّن المضبوط من باب ضبط الأمور غير المشخّصة بعددٍ معيَّن، أو وقت محسوب، والمقصود بالتّسميةِ تعيينُ وقتِ مجيء الأجل، فيكون الأجلُ كشخص له اسمٌ مسمّى ليميزه عمّا شابهه[1]، وبعبارة أخرى فقد شبَّه الأجل بالشخص الذي يتعيّن له اسم، على سبيل الاستعارة المكنية التخييلية، فيكون لفظ ﴿أَجَلٌ﴾ استعارة مكنيّة لكونه حذف المشبّه به وهو الشخص، وأبقى لازمة من لوازمه وهي التسمية.

نوعُ اللّام ومعناها الارتباطي:

امتناعُ مجيء العذاب مرتبط بوجودِ الأجل المسمّى

اللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ رابطة لجواب لولا[2]، وإنّما أحوج الرّبط لاستقلال الجملة بذاتها وعدم افتقارها لما قبلها، فجيء باللّام لبيان أنّ هذه الجملة مرتبطة بالشّرط السّابق لها، وإنّما ربط باللّام دون الفاء كما في غيره من أدوات الشّرط لتأكيد وقوع النّسبة المعلّقة بين الشّرط والجواب، فإنّ القدرة تامّة والعلم محيط[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 199.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 9.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 462.

بلاغة المجاز في جملة ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾:

تشخيصُ حضورِ العـذابِ أوضحُ في الإبانةِ وأرسخُ في البيانِ

في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ مجازٌ عقليٌّ واستعارة، ففي إسناد المجيء إلى العذاب مجاز عقليّ، إذ العذابُ لا يجيء بنفسِه، والمجيء يدلّ على الانتقال من موضع إلى موضع آخر يستقر فيه، والمعنى لجاءهم الله بالعذاب ليُهلكهم.

وفي لفظ ﴿ٱلۡعَذَابُۚ﴾ استعارةٌ مكنيَّة، إذ شبّه العذاب بشخص يجيء، وحذف الشّخص وأبقى المجيء الدّالّ عليه، والجامع بينهما الحضور والحلول، والمراد تشخيص العذاب وتأكيد مجيئه وحلوله، فهو واقع مشاهَد كمجيء الشّخص الذي يُرى.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابُۚ﴾:

عرّف النّظم الجليل العذاب بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ﴾ والتّعريف هنا تعريف العهد الذِّكريّ، أي العذاب الذي استعجلوه المذكور آنفًا.

نوعُ الواو ودلالتها:

الاحـتراسُ من أوهـام الأفـهـام بتأكيدِ الإتيان

افتتح النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾ بالواو وهي إمّا أن تكون عاطفة[1] أو استئنافيّة مبينة للجملة السّابقة من مجيء العذاب، عند حلول الأجل المسمّى، والقسم محذوف، أي: وبالله ليأتينَّهم العذابُ الذي عُيِّن لهم عند حُلولِ الأجلِ[2]، والغرضُ من الاستئناف بجملة القسم تأكيدُ نزول العذاب، بهم، واحتراسًا عن الفهم المُعْوَجِّ عن الحقيقة في عدم إتيان العذاب.

نكتة تتابع التّأكيد:

عـنـد مـجـيء الإنـكـار تتكاثر المؤكّدات

اجتمعتِ المؤكِّداتُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ﴾ من مثل القسم ولام القسم، ونون التّوكيد؛ تقويةً للخبر، وردًّا على إنكارهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 7/ 453.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.

عدمَ نزول العذاب واستعجالهم به، فإنَّ إنكارهم مجيءَ العذابِ يُناسبه التَّوكيد بأكثر من أداة.

دلالة صيغة المضارع:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع المقترن بلام القسم في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ للدّلالة على أنّه كائن في المستقبل، ولتصوير حالة إتيانه.

نكتة العدول عن لفظ المجيء إلى الإتيان:

صعوبة الوقوع في المهالك ليست كسهولةِ تصورها

عدل النّظم الجليل عن لفظ المجيء المذكور في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ إلى لفظ الإتيان المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ لبيان الفرق بين مجيء العذاب المتصوَّر وقوعُهُ وما ينشأ عنه من إهلاك عام، وبين إتيانه في المستقبل الذي ينكره المشركون، للإيماءِ إلى سهولته فهو ليس بممتنعٍ عنهم، وللإشارة إلى سرعته ومباغتته من حيث لا يشعرون.

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَغۡتَةً﴾:

مباغتةُ العذاب عـذاب معنويٌّ ممزوجٌ بالحسيّ

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿بَغۡتَةً﴾ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ عن كيفيّة مجيء العذاب، فهو وصف لكيفيَّة مجيء العذاب وحلوله بأنّه يأتي مباغتًا للإنسان فيَبْهَتُه من حيث لا يحتسب[1]! وهذا عذابٌ معنويٌّ ممزوجٌ بالحسيّ، وفائدة الإخبار بمجيء العذاب بهذه الحال لنَفْيِ الاتّكال، فلو كان وقت العذاب معلومًا للنّاس لاتّكلوا على بُعده، فباشروا المعاصي في الوقت قبل وقت نزوله، فيعمّ الفسوق والفجور بالاعتماد على إيقاع التّوبة قبل حلول العذاب المعلوم[2].

غرض تنكير لفظِ ﴿بَغۡتَةً﴾:

نُكِّر لفظ ﴿بَغۡتَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةً﴾ تهويلًا

(1) الراغب، المفردات: (بغت).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 68.

لشأنها[1]، ومعنى الفخامة هنا أنّ تغييب موعد العذاب يدفع النّاس للتّعجيل بالإيمان، فكانت عظيمة الفائدة والأثر.

فائدةُ واو الحال:

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ واو الحال[2]، والجملة حاليّة مفيدة لتأكيد معنى المباغتة، فالعذاب لا يأتيهم بطريق التّعجيل، بل مفاجئًا مباغتًا من حيث لا يشعرون[3].

مباغتةُ العذاب مقصودةٌ في الوقوع

بلاغةُ التعبير بصيغة المضارع المنفي:

وسّط النّظم الجليل حرف النّفي بين المسند إليه والمسند الفعليّ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ للدّلالة على ثبوت النّفي وتجدُّدِه، فالجملة الاسميّة دالّة على ثبوت المعنى وتأكيده، ثمّ دخول النّفي على الفعل المضارع يدلّ على تجدّد النّفي واستمراره، فكانت دلالةُ الجملة الدّوامَ والثّباتَ والتّجدّدَ، فانتفاءُ شعورهم بحلول العذاب وجَهْلُهم بأجله؛ دائمٌ مستمرٌّ، وذلك تأكيد لتحقيقِ مفهوم المباغتة في نزول العذاب.

الرّاسخون في الغفلة لا يحيدون عنها بسبب ران القلوب

نكتة فصل الجملة:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لأنّها مستأنَفَةٌ سيقَتْ لبيانِ جهلهم، وتأكيدِ انحرافهم عن الطّريق السّليم، ببيان استعجالهم عذابَ الآخرة، مع أنَّ العذابَ محيطٌ بهم لا مفرَّ لهم عنه[4]، فهي لتأكيد الجملة السّابقة، وبيان مضمونها.

تأكيد المعاني الكليَّة المغفول عنها بمثيلاتها إيقاظٌ للغافلين

فائدة تكرار جملة الاستعجال:

كرّر النّظم الجليل لفظ الاستعجال في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ تقبيحًا للعذابِ[5]، مع ما فيه من التّعجيب

استعجال العذاب دالٌّ على الغفلةِ الرّاسخة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 463.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 9.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 323.

من فعلهم، وتهديدهم بأنّ عاقبتهم نارٌ محيطة بهم لا فرارَ منها، كما أنّ تَكْرار الفعل يدلّ على أنّهم كانوا يكثرون من طلبهم تعجيل العذاب، وبتكرار استعجالهم ناسب تكرار تهديدهم.

نكتةُ التّعبير بصيغة المضارع:

الغافل العنيد تتجدّد غفلتُه بتجدُّدِ عناده

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ للدّلالة على تجدّد طلبهم ذلك، وبيانًا لاستمرارهم على الاستهزاء والصّدّ عن آيات الله تعالى، وفيه دلالة على تصوير حالتهم بتكرار طلب التّعجيل تعجيبًا من عُتوِّهم.

نوع الباء ودلالتُها:

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ لتّعدية فعل الاستعجال؛ أي يطلبون منك العذاب.

معنى تعريف لفظ ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾:

العذاب يحقّق المراد بأي نوع كان

جاء لفظ ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ معرَّفًا بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ والمراد به تعريف الجنس[1]، فيكون شاملًا لكلّ أنواع العذاب، ويشير ذلك إلى جرأتهم وشدّة تمسّكهم بباطلهم.

نوعُ الواو ودلالتها:

كيفَ يتعجّلون العذاب وقد أُحيط بهم

الواو في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إمّا أن تكون للحال، أي إنّهم يستعجلونك بالعذابِ والحال أنَّ العذابِ محيطٌ بهم[2]، وفائدة الحال التّعجيب من شأنهم فهم يطلبون باستهزاء ما هو مؤكّد الحصول ظنًّا منهم باستحالته، وتَحْتَمِلُ أن تكون الواو للعطف على جملة: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فهُما عذابان كما هو مقتضى ظاهر العطف[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 18.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 19.

غرض تتابع المؤكّدات:

مقابلةُ الإنكارِ بتأكيد الإثبات

أكّد النّظم الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بعدَّةِ مؤكِّداتٍ: بكونها اسْميَّةً، وتصديرها بحرف التّأكيد (إنّ)، واللّام المزحلقة؛ والغرضُ من توالي التّأكيدات الدّلالةُ على تحقُّقِ الإحاطة واستمرارها[1]، وردًّا على إنكارهم الآخرةَ.

نكتة تنكير لفظ (محيطة):

الإحاطة مُحكَمَةٌ لا نفاذَ عن طَوْقِها

آثر النّظم الكريم التّعبير عن إحاطة النّار بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ﴾؛ تفخيمًا لشأن إحاطتها، فهيَ إحاطة محكمة بحيث لا نفاذ منها ولا فرار، كما أنّ التّنكير يدلّ على العموم، فتكون شاملة لكلّ الجهات[2].

دلالة التّعبير بصيغة اسم الفاعل:

الدّلالة على المستقبل يتضمّن إثباتَ البعثِ

آثر النّظم الكريم التعبير بصيغة اسم الفاعل عن الإحاطة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وذلك للدّلالة على أنّ تلك الإحاطة كائنة في المستقبل، أي إنّها ستحيط بهم[3]، فهو وعيدٌ متضمِّنٌ إثباتَ البعث.

بلاغة الكناية:

ورود جهنَّم للكافرين مقضيٌّ، والخروج منها مُحالٌ قطعيٌّ

كنّى النّظم الكريم بإحاطة النّار في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ عن معنى عدم الإفلات منها[4]، فالإحاطة تدلّ على التّمكّن من الشّيء، فلمّا أحاطت النّار بالكافرين عُلِم أنَّ الإفلات منها بات محالًا، فوُرودها حتمٌ مقضيٌّ، والخروج منها محالٌ قطعيٌّ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 18/ 11237.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 44.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 19.

نوعُ الباء ومعناها:

استعمل النّظم الجليل حرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للدّلالة على الإلصاق، أي: النّار ملتصقة بهم في إحاطتها، ويدلّ على التّمكّن منهم.

معنى تعريف لفظ (الكافرين):

كيف يستعجل الكافر النّار وقد أحاطت به

عرّف النّظم الكريم لفظ (الكافرين) بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وهي هنا مُحْتَمِلة أن تكون للجنس، أي هي محيطة بكلّ كافر، فالإحاطة كائنة على هذا النّوع من النّاس، وهذا معنى حتميٌّ، وتَحْتَمِل أن تكون للعهد؛ أي للمخاطَبين الذين عُهِدَ الكفرُ منهم[1]، فيكون من باب الوعيد الخاص، الذي يُشَمُّ منه رائحة التّهكّم بهم، فكما استعجلوا النّار فإنَّها محيطةٌ بهم؛ فلا داعي للاستعجال.

بلاغة إظهار ما حقُّه الإضمار:

التّصريح بعلّة الاستحقاق وتعميم الحكم

وضع النّظم الجليل الاسم الظّاهر موضع المضمر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يقل: (لمحيطة بهم)؛ وذلك للتّنبيه على علّة الحكم، فإنّهم استحقّوا العذاب بسبب كفرهم، كما أنّه يدلّ على أنّ الحكم عامّ لكلّ من اتّصف بالكفر[2].

بلاغةُ استعمال صفة الكفر دون الاستعجال:

إظهارُ الأسباب الحقيقيّة أولى من المظاهر الطّارئة

عبّر النّظم الجليل عن الكافرين بصفة الكفر دون الاستعجال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ فلم يقل: (لمحيطة بالمستعجلين)؛ لأنّ إحاطة النّار بهم ليست بسبب الاستعجال، بل بسبب الكفر المُفضي إلى الاستعجال، فصفة الاستعجال عمومًا لا توجب النّار، وإنّما دافع الاستعجال هو الموجب للنّار.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 463.

بلاغة التقييد بالظَّرف:

الإحاطةُ واقعةٌ وقتَ غشيان العذاب

أخبر النّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عن وقت إحاطة النّار بالكافرين، وهي يوم القيامة[1]، فهو بيانٌ لكيفيّة الإحاطة بهم وزمان تلك الإحاطة، وتعلَّق الظّرف بقوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ﴾ أي: هي محيطةٌ بهم يوم أن يغشاهم العذاب.

نكتة إضافة الظرف إلى الجملة:

يوم غشيان العذاب شديدُ الأهوال عظيمُ الأحوال

أضاف النّظم الجليل لفظ ﴿يَوْمَ﴾ إلى جملة ﴿يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ للدّلالة على تهويل ذلك اليوم الموعود، فهو اليوم الذي ستكون فيه إحاطة النّار بالكافرين بأن يغشاهم العذاب الذي يستعجلونه، ففي ذلك اليوم من الأحوال والأهوال ما لا يفي به المقال[2]، فكأنَّه قيل: يوم غشيان العذاب، فهو كالتَّعريف به لشدّة أهواله وعظيم أحواله.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾ مادّة وصيغة:

غشيان العذاب لا ينقطع وآلامه لا تنقشع

عبّر النّظم الجليل بلفظ التّغشية في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ للدّلالة على علوّ العذاب عليهم وتمكّنه منهم، وقد آثَرَ التّعبيرَ بالفعل المضارع لما فيه من الدّلالة على التّجدّد، فهو دائم الغشية لهم لا يزول عنهم ولا يرتفع، ولتصوير أهوال ذلك اليوم عند غشيان العذاب.

بلاغة تكرار لفظ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾:

الإكثار من المحذور تهويل لشأنه، وتقريع بذكره

كُرِّر لفظُ ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ بعد أن قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ وذلك للإطناب بذكر ما استعجلوه ترهيبًا لهم وتشنيعًا عليهم؛ فإنّ العاقل لا يطلب العذاب فضلًا عن تعجيله! وفي التَّكرار

(1) الواحدي، البسيط: 17/ 545.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 485.

معنى التَّهديد الضِّمنيِّ، فإنَّهم لمّا استعجلوه أعاد عليهم لفظ العذاب مرارًا ليرسِّخَ في أذهانهم سَطْوَتَه، وليعلموا أنَّهم استعجلوا ما لا يُستعجل، فعند تكرار سماع العذاب، يتكرّر معها الشُّعور بالوعيد الشّديد، والغضب الأكيد.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

الابتداء لبيانِ معنى الإحاطة لا للإخبار بالجهة

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ للدّلالة على أنّ غشية العذاب تبدأ من فوقهم ومن تحت أرجلهم، فهو ليس فوقهم على جهة الإطلاق، فنبّه على عدم استغراقه جهة الفوقيّة[1]، وهذا يتناسب مع معنى الإلصاق في الباء في قوله: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾، ويتناسب مع مضمون لفظ الإحاطة.

غرض التّقييد بلفظ: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾:

الفوقيّة دليل التّمكّن وانتفاء المفرّ

عبّر النّظم الجليل بشبه الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ لتأكيد معنى الغشيان، ولرفع معنى المجاز، فشِبْهُ الجملة حالٌ مؤكّدة للغشيان، كما أنّها تبيّن غشيان العذاب وتصوّره، والغرضُ من ذلك تفظيعُ حاله بمجيئه من جهة العلوّ[2].

دلالةُ العطف بالواو:

الإحاطةّ بالنّار واقعة من جميع الجهات

عَطَف النّظم الجليل شبهَ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ على شبه الجملة: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ للدّلالة على أنّ حالة غشيان العذاب من فوق معطوفة على حالة ظهور العذاب من تحتهم[3]؛ وفي ذلك تصوير لإحاطة النّار بهم.

بلاغةُ التَّقييدِ بالاحتراس:

غشيان العذاب لا يقتصر على الفوقيّة

قيّد النّظم الجليل غشيان العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 463 - 464.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.

﴿تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ وذلك للاحتراس عن توهّم أنّ الغشيان مقتصر على الفوقيّة، لأنّ الغشيان يدلّ على العلوّ الذي هو مناسب للفوقيّة، فدلَّ الاحتراس على إحاطة العذاب بجميع الجوانب[1].

براعة اختلاف التَّعبير في التقسيم:

زيـادةُ التَّرهيب بكـون الـعـذاب آتيًا من كلّ جهةٍ فوقيَّة وحصره في جهةٍ تحتيّة

جاءت إضافة الظرف إلى لفظ الاسم الظّاهر وهو الأرجل في قوله تعالى: ﴿وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ دون أن يُضاف إلى الضمير كما في قَسيمِه المتقدم: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾؛ فلم يقل: (ومن تحتهم)، كما لم يقل في المتقدم: (من فوق رؤوسهم)؛ وذلك زيادة في التّرهيب والوعيد؛ فإنَّ غشيان العذاب من فوقهم أشمل من تحديده بكونه من فوق رؤوسهم فحسب، فلو قال: (من فوق رؤوسهم)؛ لتوُهِّمَ أنَّ الغشيان يأتيهم من جهة واحدة ضيقة، فلمّا قال: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ عُلم أنَّ المقصود هو الشُّمول، إذ الفوقيَّة شاملة للجهات المحيطة جميعها، بخلاف ذكر الأرجل؛ فإنَّ شدَّة العذاب تكون تحديدًا من تحت الأرجل، بخلاف ما لو قال: (من تحتهم) فإنَّ شمول العذاب التّحتاني يخفِّف من هوله، ومن تصوَّر مجيء العذاب من كلِّ جهة من فوق، وحصره من تحت الأرجل؛ عَلِمَ شدَّة الأمرِ وهولَه.

غرضُ الكناية:

الـفـوقـيّـة والتحتيّة كناية عن الإحاطة

عبّر النّظم الجليل بالظّرفين في قوله جلّ شأنه: ﴿مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ كناية عن الإحاطة، وتصويرًا لها؛ والغرض من الكناية التّعبير عن كون العذاب محيطًا بهم، واكتفى بجهتين؛ لأنّ ذلك كافٍ في بيان الغرض من الكناية، وطلبًا للإيجاز المناسب لمقام التّهديد والوعيد[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 464.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.

براعة الواو العاطفة في بيان المعاني:

فَـقْـدُ الأمـل في النَّجاة أشدُّ من العذابِ نفسِه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للعطف، حيث عطفت الجملة على قوله جلّ شأنه: ﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾[1]، فكلا الجملتين تعبّر عن حدث سيقع يوم القيامة، فبعد أن يغشاهم العذاب، يُقال لهم: ذوقوا العذاب؛ لمزيد التّنكيل بهم وترهيبهم، فجَمَعَ عليهم العذاب الحسّيَّ والمعنويَّ في سياقٍ واحد، فإنَّ الغشيان وحدَه عذابٌ أليم، فإذا ما قيل لهم: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ازداد عذابُهم عذابًا؛ لفقد أمل النَّجاة.

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿وَيَقُولُ﴾:

قـــراءةُ التكلم أبانت عن عظمة الأمـر والـغَـيْـبَـة عن هَوْلِه

اختلف القرّاء في قراءة قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُ﴾، فقرأ نافع والكوفيون بالياء ﴿وَيَقُولُ﴾، وقرأ البقيَّة بالنّون ﴿وَنَقُولُ﴾[2]: فمن قرأ بالياء التحتيَّة فالضمير عائد إلى معلوم من المقام، والتقدير: (ويقول الله)، وعَدَلَ عن ضمير التكلم على خلاف مقتضى الظاهر على طريقة الالتفات على رأي كثير من أئمة البلاغة، أو يقدر: ويقول الملك الموكل بجهنم، أو التقدير: ويقول العذاب، بأن يجعل الله للنار أصواتًا كأنَّها قول القائل: ذوقوا، ومن قرأ بالنون وهي نون العظمة[3]، جعله تعظيمًا لذلك القول وترويعًا للكافرين[4]، فقراءةُ التَّكلُّم أبانت عن عظمة الأمر، وقراءة الغَيْبَةِ أبانت عن هَوْل القول.

غرضُ الأمر وبلاغته:

تعذيب الأرواح نـظـير تـعـذيب الأبدان

جاء التعبير بصيغة فعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن توبيخهم وإهانتهم[5]، وتوجيه الأمر إليهم وهم في دار

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 11/ 10.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 20.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 464.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 323.

العذاب مبالغة في التّعذيب النّفسي قبل البدني، فلمّا "بيّن عذاب أجسامهم بيّن عذاب أرواحهم، وهو أن يُقال لهم على سبيل التّنكيل والإهانة: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾"[1].

بلاغة الاستعارة وتنوعُها:

جـزاءُ التَّهكُّمِ بـمـجـيءِ العذابِ التّهكُّمُ بالمتعجّل عند وقوع العذابِ

استعار النّظم الجليل لفظ الذّوق في قوله جلّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عن مسّ العذاب لهم، فشَبَّهَ وصول الألم إلى المعذّبين بوصول الذّوق إلى الذّائق[2]، على سبيل الاستعارة التصريحيَّة، وذلك تعبيرًا عن تحقّق العذاب ووقوع الإيلام به، وبيان أنّ قليله يفي بإيقاع المطلوب فما بال كثيره؟! والذّوق حقيقته وجود الطّعم بالفم، وأصله أنّه يقع بقليل من الطّعام، فإذا كثر يُقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذَّوْقِ للعذاب؛ لأنّه وإن كان في العرف يقع بالقليل فهو صالح للكثير، فخَصَّهُ بالذّكر ليُعْلَم أنّ العذاب يقع بالقليل والكثير[3].

أو أنَّه على سبيل الاستعارة التَّهكُّميَّة، فالعذاب لا يُذاق، فنزَّل ما لا يُذاق منزلة ما يُذاق ويُستطاب من باب التّهكّم بهم، فإنَّ الذَّوق يُطلق لما يُستطاب من الطّيِّبات، وهذا من العدل في الجزاء، فلمّا تهكّم المتعجِّلون العذاب، جاءهم التَّهكُّمُ عند وقوعه.

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته:

جاء استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما فيه من الدّلالة على العموم، فيشمل كلّ أعمالهم الباطلة التي قادتهم إلى العذاب.

(1) الخطيب، السراج المنير: 3/ 148.
(2) الواحدي، البسيط: 17/ 546.
(3) اسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 485.

نكتة ذكر فعل ﴿كُنتُمْ﴾:

جـزاء المعاندين بسبب الإصـرار عـلى التـكـذيب لا بمجرَّد عمل عابر

جاء ذكر فعل ﴿كُنتُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للدّلالة على رسوخ تلك الأعمال فيهم، فهم يعملون المعاصي رغبة فيها وذلك لأنّهم يُصِرّون عليها، فلولا كونُهم راغبين فيها لما داموا عليها دوامًا مستمرًّا، والتي من ضمنها الاستعجال بالعذاب والاستهزاء به[1]، فإنَّ فعل ﴿كُنتُمْ﴾ دالٌّ على أنَّ دَيْدَنهم هو تلك الأعمال التي استحقّوا بها العذاب الأليم، وذكره يومئ بأنَّ تعذيب الله سبحانه وتعالى لأولئك المنكرين المستهزئين، لم يكن بمجرَّد عملٍ عابر، بل بعمل دائم صادر عن عنادٍ وإصرار.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

آثر النّظم الكريم التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للدّلالة على أنّ العذاب وقع بسبب أعمالهم الدائمة، ولتصوير تلك الأعمال لزيادة الحسرة.

بلاغة المجاز في ذكر السبب وإرادة المسبَّب:

زرع قيم الهداية فـــي نـفـوس الكافرين مزيَّة الـــقـــرآنِ في الـحـــرص على العباد

آثر النّظم الكريم ذكر العمل دون النّار في قوله جلّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ومقتضى الظّاهر أن يُقال: (ذوقوا النّار)، أو (جزاء ما كنتم تعملون)؛ فذكر السّبب وأراد المسبَّب، إذِ العمل هو السّبب في دخول النّار، فذكر العمل لتذكير أهل النّار بمعاصيهم وباطلهم، وللحضِّ غير المباشر لترك ما هم عليه من الأعمال الباطلة، فإنَّ الإنسان العاقل إذا علم أنَّ عمله سيُدخله النّار، فإنَّه سيُسارع إلى تركه، ففرضُ ذكر السبب وإرادة المسبَّب ما فيه من القيمة الهدائيّة، وعنصر التَّرهيب والوعيد.

نكتة حذف متعلّق ﴿تَعْمَلُونَ﴾:

حُذف متعلّق الفعل ﴿تَعْمَلُونَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 45.

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ إمّا لتنزيله منزلة الفعل اللازم؛ فيكون المقصود سلوكَهم الناشئ عن اعتقادهم، وإمّا للعموم، فيدخل في ذلك جميع الأعمال المنكرة الصادرة عن الجحود والكفر والتكذيب، وكلاهما مقبول ومتسق مع المقام.

فَسَدوا حتّى غَدَتْ كلّ أعمالهم سيّئةً

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العمل والفعل والصّنع:

الفعل: هو التّأثير من جهة مؤثّر، وهو عامّ لما كان بإجادة أو غير إجادة، ولِما كان بعِلْمٍ أو غير علم، وقَصْدٍ أو غير قَصْدٍ، ولما كان من الإنسان والحيوان والجمادات[1]، أمّا العمل: فهو كلّ فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخصّ من الفعل؛ لأنّ الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعَمَلُ قلّما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العَمَلُ في الحيوانات إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ، والعَمَلُ يستعمل في الأعْمالِ الصالحة والسّيّئة[2]، أمّا الصّنع فهو ترتيب العمل وإحكامه، وتقدّم العلم به وبما يوصل إلى المراد منه ولذلك قيل للنّجّار: صانع، ولا يُقال للتّاجر: صانع؛ لأنَّ النّجّار قد سبق علمه بما يريد عمله من سرير أو باب، ويعلم الأسباب التي توصل إلى ذلك، والتّاجر لا يعلم إذا اتّجر أنّه يصل إلى ما يريده من الرّبح، فالعمل لا يقتضي العلم بما يعمل له، والصّنع يدلّ على الجودة[3]، فهو أخصّ من العمل، فلا يقال إلّا لما كان من الإنسان بقصد واختيار، وبعد فكر وتحرٍّ وإجادة، وقد عبّر في الآية الكريمة بالعمل لأنّ العمل يشمل أعمال القلوب وغيرها، ولا يشترط في العمل الصّالح الجودة، بل مطلق العمل.

العمل أعمّ من الصُّنع وأخصّ من الفعل؛ فالصّنع فيه إجادة والفعل بلا قصد

(1) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(3) العسكري، الفروق اللغوية: ص: 135 - 136.

المجيء والإتيان:

الإتيان يدلُّ على مجيء بسهولة وإزالة موانع ومعيقات، وأمّا المجيء ففيه شدّة وصعوبة، والإتيان يعني المجيء بسهولة، فهو مجيء مخصوص[1]، فعبّر عن العذاب بالإتيان للدّلالة على أنّه يأتيهم بلا صارف ولا مانع يعوق بلوغه لهم.

الإتـيـان مجـيء بسهولة لامتناع العوائق دونه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جاء) و(أتى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»